الابتكارات والتجديدات الشعرية عند محمد اقبال

Innovations and renewal in poetic expressions according to Muhammad Iqbal

Muhammad Zafar Siddique
Ph.D. Research Scholar, Department of Arabic
The Islamia University of Bahawalpur
Email: zafarsiddique742@gmail.com
Pr. Dr. Hafiz Shafiq Ur Rehman
Professor, Department of Arabic
The Islamia University of Bahawalpur
Email: hafiz.shafiq@iub.edu.pk

ABSTRACT
"Allama Muhammad Iqbal is a multidimensional personality, with the fact that he was a great poet, philosopher, politician, religious scholar and lawyer. Additionally, he had a wonderful grip on different languages i.e. Arabic, Persian and Urdu. However, his command on Arabic was valued by the renowned scholars of the same language. His poetry is based on Islamic literature. Impact of Arabic and Islamic literature can be seen in Iqbal's poetry, that he used the Arabic terminologies in his poetry more regularly and more precisely. Most of the ideas and discussions of Islamic literature came from his poetry. Islamic are still mourning their heart and mind from the light and heat of his poetry."
Keywords: Arabic language, Arabic Literature, Arabic terminologies, Innovations

مقدمة

الحمد الله ذو الكمال والجمال، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺوآله وصحبه أجمعين . أمابعد: بدأ إقبال بنظم الشعر صغيرا، وقد كان ينظم شعره بالأُردية والفارسية ويرسل ما كتب إلى الشاعر الكبير داغ، وهو أحد شعراء الهند النابغين، فيُقوّمه، حتى عاش داغ وقد بلغت أشعار إقبال الآفاق، فكان يفخر داغ بعد ذلك أنه من نقّح شعر إقبال في صباه .[5]وقد خَلّف إقبال دواوين بالفارسية والأُردية وتُرجمت إلى العربية .وفي هذا المقال تم توضيح الجوانب والأفكار الجديدة في شعر العلامة إقبال.

أولاً: التجديد فى التعبيرات الشعرية

ا- الشعر الفارسى:

مطهر الجدة شيء ملحوظ فى شعر إقبال على الرغم من أنه لم يكن- حقيقة- ضد مقاومة التمسك بالتقاليد فهو يستخدم كلمات خاصة واصطلاحات ليعبر عن أفكاره الأصيلة، بعض هذه الإصطلاحات ابتكرها هو وبعضها استخرجها من القديم فأحالها إلى حالة جديدة تماما، وعبارات إقبال أيضا تمثل حجر الأساس لقنطرة الإلهام الشعرى ولأن نزع حجر الأساس يسبب السقوط المفاجيء للقنطرة الداخلية لذا فلو حاولنا استبدال الكلمة الأساسية أو الإصطلاح الأساسى بآخر فإن التعبير الفنى ينهار،والتعبير بالنسبة للتجربة الشعرية يعتمد على الكلمات والمصطلحات التى تشكل جوهر الفكرة ذاتها وعلى سبيل المثال فإن كلمة "قلندرانه" هى المحور الذى يرتكز عليه سحر هذا البيت:

مررت "بالبيت" من الخارج لكنى قلت كل ما فى البيت
كيف أن قلنداراً مثلى قد قال مالم يقال من قبل[١]

فكلمة قلندر عند إقبال ترمز إلى الرجل الذى يتحدى التقاليد والشكليات وإقبال يجعل هذا البوهيمى ممثلا فى الناظر الذى يمكن أن يعرف أسرار البيت دون الدخول فيه وتعبيره هذا يفرض بنفسه وزنه وأهميته، هذا من تاحية الفكرة إلا أن كلمة قلندرانه تعطى سحراً جديداً وتهب الشعر حياة حقيقية-[١]

وكانت أسنية الأستاذ سيد عبدالواحد أن يقوم الدارسون بتحقيق هذا الكلمات وقد تحققت أسنيته أخيراً ومن بين من بحثوا فى هذا الأستاذ محيط طباطبائى ونشر بحثه فى كتاب بالأردية بعنوان "إقبال ايرانيوں كى نظر ميں" (إقبال فى نظر الإيرانيين)، والد كتور سيد محمد يوسف ونشر بحثه فى مجلة إقبال يناير ١٩٧١ والأستاذ ماهر عبدالقادر ونشر بحثه فى نفس المجلة عدد يوليه ١٩٦١ كما أن الدكتور يوسف حسين تحدث عن هذا بإسهاب فى كتابه "روح إقبال"- وسوف أكون هنا موجزا حين أتعرض لهذا الموضوع إذ أنه يحتاج بنفسه إلى بحث خاص-

يرى الأدباء الايرانيون أن من ألم ينظر ونشر سعدى وشعر حافظ يرى آثار الغرابة فى التعبير حين ينظر إلى كلام إقبال من الناحية النقدية، كما يرى المضمون المهم والتعقيد اللفظى والمعنوى، ويعتقد أن هذا كان نتيجة لإختلاف الأسلوب الشعرى الناتج عن عدم سيطرة الشاعر على اللغة الفارسية، هذا بينما من وجهة نظر بعض النقاد من التر كستان وأفغانستان والهنود أن البديع فى شعر إقبال رائع وأحلى من الشهد- على حد مايقولون- إلا أن هزه التعبيرات الجديدة التى بعدها القارىء الإ يرانى ضعفا فى التأليف أو غموضاً فى المعنى أو تجديداً فى الأسلوب إنما هى كلها مبنية

على أصول البلاغة القديمة التى بقيت و دامت فى شعر كل من قدسى وهائب وبيدل وشوكت وغنى وغالب والعلماء الهنود قد جمعوا فى كتبهم اللغوبة هذا الألفاظ والمصطلحات التى هجرت فى إيران الآن إلا أنها بقيت رائجة فى القرون الماضية فى الهند وأفغانستان وتاجيكستان وبخارى وسمر قند وكثيراً ما استشهد الشعراء فى مجالسهم الأدبية بكلام صائب و كليم ونظيرى وعرفى عيبدو أن هذا الإختلاف فى استعمال الألفاظ والتعبيرات بين شرق إيران وغربها هو انقطاع الصلة بين اللغة الفارسية فى الهند وإيران، لكن الحقيقة أن اللغة الفارسية نفسها قد تعرضت للتغيير منذ حوالى ٢٠ سنة فى إيران. وبعد موت نادر شاه اضطربت الأحوال فى الهند وانقطع آخر حبل يصل الأدب فى كل من البدين ومن هنا اضطر الناس للزحف إلى بلاط الهند أو بلاط إيران طالباً للشهرة والجاه واتخذ كل منهم مقره فى أحد البدين ونتيجة لذلك انقطعت سلسلة الشعر والنثر التى طلت متصلة بين البدين مئات من السنين فقلد شعراء الهند أسلوب و بيان شعراء العهد الصفوى فتتبعوا صائب وبيدل وفيضى وكليم و قدسى بينما حدث العكس فى إيران فترك الشعراء أسلوب العهد الصفوى والهندى بل أنه مع بداية عهد كريم خان بدأت ثورة على سياق الكلام الهندى.[2] - بين شعراء إصفهان واتجه الشعراء بعد ذلك إلى شعر ماقبل العهد المغولى.

وعارض "هاتف" و "آذر" و "مشتاق" و "عاشق" و "رفيق" أسلوب الشعر الهندى وبعد ذلك نقل "نشاط" و "مجمر" و "حبا" هذه المعارضة من أصفهان إلى طوران. ونتيجة لذلك اغمض شعراء العهد القاچارى عيونهم مرة واحدة تاريكين أسلوب شعراء العهد الصفوى وبدأوا فى تقليد كلام المتقدمين. واتخذ شعراء العصر القاچارى أسلوب الشعر الفارسى للعهد السامانى والغزنوى والسلجوقى أساسا لهم فقلدوا الفرخى والعنصرى ومسعود وسنائى.

وشىء جديد بالذكر هنا أيضاً وهو إدراج الترجمات الأوربية إلى الفارسية ثم ما كان له من تأثير على طريقة البيان والأسلوب الذى بنتج عن درايتهم واطلاعهم على اللغات الأجنبية للشعراء المعاصرين فحدث التغير فى الأسلوب. ولم يكن هذا من نصيب شعراء الفارسية بالهند.

كان هذا بيجاز هو سبب وجود التفاوت بين الأسلوب الأدبى لشعراء إيران المعاصرين والشعراء الهنود. يقول الأستاذ محيط طباطبائى "ولقد اعتبر المرحوم وحيد دستگردى هذا التفاوت فى طريقة البيان نقصاً فى شعر شعراء الهند وقد داوت بينى مناقشة حول إقبال" فقال سيادته:

"إن هذا الإتهام فى المضمون والتعبيرات الفارسية الغربية التى لا تعجب بها أبداً إنما هى نتيجة لعدم الألفة والتوجه إلى صحة الكلام الفارسى عدم حصول الشعراء الهنود على العبارات الأخرى أو تمكنهم منها فاعتبروها كلها خطأ"

ويستطرد قائلا:

"لكن حين يتتبع الإنسان سلسلة الشعر الفارسى من أيام حكيم نظامى ليصل إلى أمير خسرو حسن دهلوى، وبعد أن يصل كل هذا بشعر الجامى وطاهر دكنى وتمد هذه السلسلة حتى طالب وكليم ومسيحا وقدسى وصآئب وفيضى۔ فإننا نصل إلى آثار بيدل وغنى و غالب وبعد أن نطالع طريقة الفصاحة والبلاغة وكيفية استعمال الألفاظ وبيان المضمون فإنه سوف يرى أن شعر إقبال من نفسى الروضة الأدبية التى قطعت فى أزدمارها هذا الشوط من الزمان، وبعد أن نطالع ديوان بيدل وصائب ثم نطالع آثار إقبال المنظومة فإننا لا نرى فى شعر إقبال أى نوح من غرابة اللفظ أو إبهام المعنى"۔(3)

ب۔ الشعر الأردى:

هذا من ناحية الشعر الفارسى۔ أما من ناحية الشعر الأردى فأن لغة إقبال فى شعره الأردى صافية نظيفة سهلة۔ وهذه السلاسة والتقاء أوجدت فى فنه الحسن والجاذبية بل أن بريق ولمعان إقليم البنجاب الذى نشأفيه إقبال يظهر بوضوع فى لغته وعلى لسانه، وإقبال قدم فى شعره الأردى أشعار الشعراء إنجليز لكنه أضاف إلى موضو عاتهم أشعارا مليئة بالفكر ومن بينها بعض الموضاعات كانت اللغة الاردية الأدب أبعد ما تكون عنها وكان من الصعب عليه أن يضع المضامين الفلسفية فى قالب الشعر الأردى لكن الشاعر قام بهذا مما ساعد على إيجاد اولسعة فى اللغة الأردية بل كانت له القدرة الكاملة على اللغة الأردية۔

وخلق إقبال إصطلاحات جديدة فى اللغة تماما كما فعل فى الفارسية كما اتسع الأدب الأردى۔ بما أدخله من إستعارات وتشبيهات حديثة۔ فصور الطبيعة فى شعرء الأردى ونظم عن "الهملايا" وصور الفراشة والبلبل وغيرها حيث بوجد قوة التصوير سواء من ناحية الخيال والفكر أو البيان والإبداع بالتشبيهات والإستعارات الرقيقة۔ وكما ترجم إقبال إلى الأدربة أشعارا من الإنجليزية فهو فى بال جبريل ترجم عن السنسكريتية من مها كوى عن غيرها بل كان يأخذ شعر كل كل من حفظ وغالب ويعيد خلقه من جديد وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً لشعره الأردى فليكن قصيدة "شكوى" وهى من منظومات الدور الأول للشاعر إلا أنها تعد من شوامخ فنه ولها وزنها فى الشعر الأردى۔

كما أدخل إقبال المضامين القديمة فى إستعمالات حديثة وذلک فى المضامين الدينية مثل *كافرى۔ دين دارى۔ پيران حرم۔ مقدر۔ عرش بريں۔ ملت بيضاء۔ طواف۔ حج۔ ذكاة۔ روزه۔ نماز۔ آذان۔ جماعت۔ حرم۔ توحيد۔ جهاد۔ يد بيضاء۔ مسيح۔ جمال۔ جلال۔ نور۔ كليم۔ خليل معجزه۔ وحى۔ زنار۔ مصحف۔ جبريل* وغيرها۔ هذا بالأضافة إلى آلاف المصطلحات الجديدة التى استحدثها إقبال مثل: صدى خوان۔ افتراق بولهبى۔ شيوه هائى خانقاهى۔ بازيچة تأويل۔ رسم وراه۔ خانقهى۔ سرور أزلى۔ حضرت يزدان۔ فطرت احرار۔ قباپوش۔ وكلمه دارى۔ مجاهدانه۔ حرارت۔ علم لاموتى۔ شيخ كليسا۔ نماز بى قيام۔

محروم يقين۔ گلبانگ أنا الحق۔ رسم شبيرى۔ بوئى رهبانى۔ كلى۔ بيتجلى۔ مسيح بے صليب۔ فقر وراهبى وغيرها۔

أما المصطلحات الفسلفية فقد إستحدثها إقبال لشرح المسائل الفلسفية فى أشعاره ومن بينها: معركة بود و بنود۔ نظام هست و بود۔ طلسم شش جهت۔ زمان۔ ومكان۔ صفات ذات حق۔ عين ذات۔ حادث۔ قديم۔ قلب۔ و نظر۔ عرفان۔ لازمانى۔ وحدت أفكار و كردار۔ مشاهدة۔ ثبات۔ بقاء۔ فنا۔ نقش گر حادثات۔ غياب و حضور۔ مقام كبرياء۔ طلب صادق۔ انداز آفاقى۔ مقامات۔ آه وفغان۔ نشاط رحيل۔ فكر حكيمانه۔ گرمى أفكار۔ انديشه۔ بے باك وغيره۔

ومن بين المصطلحات السياسية: دست دولت آفرين۔ أعضائى مجالس۔ مجلس شورى۔ دهريت۔ سلطانى۔ سياست أفرنگ۔ جوانگى۔ خوئى غلامى۔ ملوكيت پرويز۔ أمير قافله وغيره۔(4)

ومن بين المصطلحات المتنوعة: لاله كارى۔ طلسم سامرى۔ تقدير امم۔ خاراشگافى۔ قنديل رهبائى۔ آهنگ۔ فقر غيور۔ صرب كليم۔ بال جبريل۔ شراب زندگى۔ حيات زندى۔ سرود بربط هستى۔ جدت۔ خاتم۔ هستى۔ آئينه در هستى۔ ذوق آگهى مست۔ شراب تقدير۔ ذوق تبسم۔ كشاكش پيهم۔ ذوق جستجو۔ لذت خودى۔ صبح دوام۔ زندگى جهان۔ ضربت روزگار۔ فيض شعور۔ تقدير حواسى۔ ذوق فردا۔ لذت إمروز۔ تسخير جهات۔ كاروان۔ زند۔ نشاط رحيل۔ رسم شاهبازى۔ طاهر لاهوتى۔ لذت يكتائى۔ كوكب تقدير۔ سرنهانى وجود۔ تقاضائے وجود۔ آئين مكافات عمل۔ داغ آرزو۔ تقويم حيات۔ عيار ممكنات وغيرها۔

ومن الجديد بالذكر هنا أن اللغة الفارسية كانت منبعا رائعا للكلمات والمصطلحات للتعبير عن أفكاره ويقال أن هذا أحد الأسباب التى جعلته بيدأ الكتابة بالفارسية ۔ (5)

ثانياً: التجديد فى القوالب الشعرية:

أنواع المقاطع الشعرية المسخدمة فى النظم الفارسى والأردى قياسية بشكل عام إلا أن إقبال نتيجة لحاجته إلى أنواع أكثر فى إبقاعات الطم فقد استحدث عدة أشكال جديدة من القطع الشعرية۔ والقطعة عبارة عن قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب وقد تكون أيضا جزئً من قصيدة لم يقدر لها أن تكمل كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها صاغها الشاعر من البداية ليعرض فيها غرضا من الأغراض وفى كثير من الأحوال يدل أسلوب القطعة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها سنذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها۔

ومثال تجديد إقبال هذا نراه فى منظومة "زبور" فمع اللازمة (العبارتى تتكرر على نحو موصول فى القطعة) "انهض من السبات العميق" فانها تحتوى قطع تتكون كل واحدة منها ستة أبيات، الأربعة

الأولى بنفس القافية ونفس الوزن والبيت الخامس له وزن أطول والسادس له وزن أقصر وكل من البيت الخامس والسادس يتطابق فى القافية مع الأبيات الأولى وتتكرر فى كل قطعة۔(6)

وفى منظومة "سرود أنجم" فان كل قطعة تتكون من خمسة أبيات، الأربعة الأولى بنفس القافية وفى نفس الوزن لكن البيت الخامس فى وزن مختلف ولا يتطابق فى القافية مع الأبيات الأخرى۔ ويتكرر هذا مع نهاية كل قطعة۔ وفى منظومة "إنقلاب" تتكون القطعة من أربعة أبيات فى القطعة الأولى فإن الأبيات الأربعة الأولى تتطابق فى القافية ولكن فى بقية القطع قان الثلاثة أبيات الأخيرة فقط تكون متطابقة فى القافية۔ والكتابة عن هذا الموضوع لا يمكن أن تستوعب كل ماجدده إقبال إلا أن هذه الإشارة كافية لإيضاح هذه الخاصية فى فن إقبال الشعرى والنغمة الختامية الملائمة لأشكال القطع الشعرية تحتاج إلى إستقصاء للأسباب أكثر ثفيصلا من هذا على سبيل المثال فى منظومة "سرود أنجم"تنساب القافية متدفقة لتبين الهدوء لا الحركات السريقة للنجوم إلا أنه فى منظومة "إنقلاب" نرى القافية متواثبة والنغمة الختامية متمهلة متريثة ناعمة لتصور الوصول التدريجى للثورة۔

وقبل أن أترک هذا المقام أحب أن أشير إلى البحور الشعرية المحببة عند إقبال وللتمثيل على هذا نأخذ ديوانى إقبال: "بانگ درا" و "بال جبريل" فأكثر منظوماتها فى بحرالرمل المثمن المحذوف "فاعلاتن فاعلاتن فاعلن" والمظومات الأربعة الأولى فى بانگ درا۔ همالە۔ گل رنگين۔ عهد طفلى ومرزا غالب۔

فى هذا البحر كما أن هناک عدة منظومات من منظومات الدور الأول فى هذا البحر وهى: خفتگان خاک استفسار، سيد كى لوح تربت پر، رخصت أى بزم جهان، نالة فراق وداغ۔ وفى الجزء الثانى من بانگ درا توجد أربعة منظومات وفى الجزء الثالث تسع عشرة منظومة فى هذا البحر ومنها: شمع اور شاعر۔ والده مرحومه كى ياد ميں۔ خضر راه۔ وهى من المنظومات الذائعة وكذلک منظومة "جبريل وإبليس" وهى النطم الثامن لبال جبريل۔

فى منظومات بالى جبريل يوضح إقبال بعض جوانب نكره المليئة بالجذبات حيث يستلزم التوازن وحسن ترتيب "الأوتاد والأسباب" فى أركان النظم فيخلق هذا نغمة رائعة سهلة سلسة بتوازن الأركان وروعة الأداء مما يدفع القارىء إلى الإنسياب فى التجربة الفكرية جنبا إلى جنب مع التجربة الشعرية للشاعر ومن هنا دقق إقبال فى ترتيب أركان البحر ليخلق الأداء الرائع والتوازن بالإضافة إلى النغمة والإنسجام وبعد هذا من الخصائص المشتركة لبحوره المحببة، وأعجب إقبال كثيرا ببحر الرمل المثمن المخبون المقطوع "فاعلاتن فاعلاتن فعلاتن فعلاتن فعلن" وهذا الوزن هو وزن الكثير من الغزليات والمنظومات اتشهيرة خاصة فى الأردية فبالإ ضافة إلى "شكوى وجواب شكوى"

توجد عدة منظومات فى القسم الأولى والثانى والثالث لبانگ درا إذ أن هذا الوزن يصلح لأداء المضامين الغزلية۔

والبحر الثانى هو "المضارع المثمن الأخرب المكفوف" "مفعول فاعلاتن مفاعيل فاعلن" وقد نظم به مير و غالب غزليات فى نفس البهر۔ ومن منظومات هذا البحر الأربعة الأولى فى الجزء الأول لبانگ درا: شمع وپروانه، وآفتاب وشمع ودرد عشق۔ والمنظومات العشرة الأولى فى الجزء الثالث ومنها: محبت۔ جام هند۔ شبنم اور ستارے۔ شبلى و حالى فردوس ميں ايک مكالمه۔ پيوسته ره شجر سے۔ وغيرها وبشكل عام فكل منظومات بال جبريل الصغيرة مثل "بسپانيه، لينن، فرمان خدا، روح ارضى آدم كا استقبال كرتى ہے"۔ أبو العلاء معرى وغيرها كل هذه فى هذا البحر الذى يمتاز بسهولته وحلاوة أنغامه وتجانسها كما أنه مفعم بالقوة والحمية والهياج وسرعة نفاذه إلى انقلب يقول فى منظومة "روح ارضى آدم كا استقبال كرتى ہے"۔

كھول آنكھ، زمين ديكھ، فلک ديكھ، فضاء ديكھ۔

افتح العين وانظر إلى الأرض۔ إلى الفلک، إلى الفضاء۔

وفى منظومة "لينين" حيث يكون فى حضرة اللّه:

اے أنفس وآفاق ميں پيدا تيرى آيات

يامن آياتک ظاهرة فى الأنفس والآفاق

مثل هذه المصارع تدل على قوة تصور الشاعر وهذا ناتج عن التجانس والإنسجام بين مزاج البحر نفسه وبين جلال الشعر وقوة الأفكار۔

وبحر المضارع المچمن الأخرب "مفعول فاعلاتن مفعول فاعلاتن" من البحور المحببة عند إقبال لأسباب بديهية فهو بحر سهل وظاهر بماله من ترنم ونغمات وجميع منظومات الجزء الأول من بانگ درا فى هذا البحر: ايک آرزو، ترانه هندى، جگنو، هندوستانى بچوں كا قومى گيت۔ كل هذه ترجماناً للشاعرية الصادقة والإحساسات العظيمة لإقبال التى سيطرت على بقية إحساساته فى هذه الفترة وفى الجزء الثانى فإنه يوجد فقط نظم واحد ولا يوجد أى نظم آخر فى بال جبريل فى هذا البحر والسبب هو أن هذا البحر لم يكن ليطرق ذهن إقبال فى زمان إقامته فى أوربا لأنه كان سيبعده عن المتانة الفكرية التى هى من الخصائص الشعرية لبال جبريل، ومما يأكد ذلک هو اختياره لبحر آخر وهو الهزج المثمن "مفاعلين مفاعلين مفاعلين مفاعلين" وهو غناثى إلى درجة كبيرة كما أن سلامة أركانه يتيح للشاعر فرصة ترتيب ألفاظه لتطابق مختلف سوره المحببة لديه بالإضافة إلى خلق الأثر الغنانى المؤثر وحين تظهر التأثيرات الرومانسية فهذا هو البحر المطلوب

أما حين يسيطر الفكر، كما هو الحال فى بال جبريل فيكون الإبتعاد عن هذا البحر والفكرة هى أن إقبال كان يستخدم البحور فى منظوماته متطابقة ومنسجمة مع تطوره الفكرى ـ(7)

ثالثاً: التجديد فى الخيال:

الخيال هو الموهبة الطبيعية الخاصة بالشعراء فخيال الشاعر من ناحية يعبر عن الفكرة العقلية والروحية فى شكل معين ومن ناحية أخرى مع المعنى الأسمى الذى يراه ـ ومن هنا فإنى كل الشعراء بالضرورة يمتلكون الخيال والفرق بينهم هو ـ فقط ـ فى مسألة الدرجة وإقبال ـ

والعلاقة بين الخيال والعاطفة علاقة متلاصقة جدا ولذا فإن العاطفة العميقة ترقق الخيال والمنظر الخيالى يرقق العاطفة ومن هنا فإن الدرجة العالية للخيال تتطابق عامة مع تطور العواطف وأن قوة المخيلة العالية عند إقبال تدل على أن عواطفه عميقة لكنها سليمة ومضبوطة ـ(8)

رابعاً: معالجته للطبيعة

ترك إقبال كمية ضخمة من الأشعار فى وصف الطبيعة، ومن الملامح الرئيسية لفن الشعر عند إقبال هو حبه الجارف الواسع للطبيعة، وهو يتصور كل موضوعات الطبيعة كاشياء تعيش مثلنا ومعالجة موضوعية والطبيعة دائما يقدمها بمشاعره الشخصية، يصف الربيع فيقول:

"إنهض فالربيع قد حل على الجبل والوادى والهزار يغنى منتشيا والطوطى والدراج والسار ـ

وعلى شواطئ الجداول ظهرت الورود وشقائق النعمان ـ أخرج و تفرج فالربيع قد حل الجبل والوادى ـ

فوصف الربيع هنا ليس فقط ساحر وفتان بل إنه أيضا يمثل صورة مصغرة لرسالة إقبال: إستيقظ، إنهض، إعمل، تحرك، ليس هناك وقت لأن تبقى ساكنا فتأثير الربيع هو منهج الحياة والحيوية لكل شئ فحين نقرأ الشعر نشعر بوجودنا بخفق بالحياة ـ

و بصرف النظر عن هذه المعالجة فإن إقبال يستخدم الطبيعة بتأثير عجيب فيما يمزجه من مجاز واستعارة و تشبيه وهو يستخدمها كخلفية لشعره فهى تمد بأسباب الحياة ـ و تقدم عن طريق الكناية المحتوى الداخلى لرالة شعره ـ و من أمثلة ذلك ـ

(ساقى نامه):

"السماء الزرقاء، والهواء فى سرور
الطيور خرجت من أوكارها
النهر يزحف تحت الجبل
قادماً كالظافر ينساب متهادباً

أنظر إليه يقفز إلى أعلى أو ينقطع أمام العواثق
ثم يخرج مندفعا بالمنحنيات والملتويات
فقط أنظر قليلاً أيها الساقى ذوالوجه المضئ
كيف أن هذا النهر يبلغ رسالة الحياة

ففى مقابل استخدام الطبيعة كخلفية فإن الشاعر يبلغ فلسفته عن الحياه بتلك القصة الرمزية التى ساقها عن نهر الجبل فتماما مثل النهر الذى يتقدم بثبات رغم كل العواثق ينبغى على الإنسان أن يطور شخصيته عن طريق السمو والإرتفاع فى حياته۔

وتفوق إقبال أيضا فى وصف مشاهد الطبيعة وهذا الشعر الوضعى أو التصويرى يغلب على منظوماته المبكرة۔ و عن طريق المثالية الفنية كان يجعلنا نرى جمالا كنا نمر به دون أن نعيره التفاتا، يصف منظراً ريفيا فيقول:

"الخضرة على طول الجانبين
ماء النهر الصافى يجعل المنظر رائعا
منظر الجبال رائع جذاب
وهذا الماء يرتفع ليراه الموج
الأغصان المملوء ة بالورود تتدلى على الماء
كحسناء تنظر فى المرآة
والنهر يتساقط حتى تقوم
الأزهار بالوضوء
أما أنا فوضوئى سوف يكون بالدموع
وصلواتى بالإنتحاب والعويل(9)

فمثل هذا الشعر - بصورة عامة - شعر موضوعى "غير ذاتى" إلا أنه عند إقبال فإن هذا الوصف تشوبه اللاموضوعية والميزة الرئيسية لهذا الشعر الوصفى أن إقبال يجعلنا نشعر أننا فى قلب المنظر نفسه كما أن الأثر بزداد نتيجة للمحافظة على روح الوصف۔

وليس من الممكن أن أعرض هنا، عرضاً شاملاً و كاملاً، معالجة إقبال للطبيعة إلا أنه يجب أن يشار إلى دقة الوصف التى تميز بها إقبال و على سبيل المثال هذا الوصف لإقتراب الخريف:

"إن بتلات الأزهار تتساقط فى الخريف
كما تتساقط اللعب الملونة من يد طفل يغفو(10)

خامسً: البلاغة والفصاحة

من أهم الخصائص المشاهدة فى شعر إقبال هو بلاغته وفصاحته المشبوبة بالعاطفة الواضحة الجليلة دون مجهود، فهو فى هذا يصل إلى قمة علوية۔ بالإضافة إلى الإتساق اللحى فى اللغة مهما كان الموضوع الذى يطرقه۔ ونشاهد نفس تدفق الافكار المغلفة باللغة الجميلة بحيث يجد الفرد صعوبة فى أن يفرق: هل هذا هو روعة الفكر نفسه أم روعة التعبير، أى منهما هو مصدر البهجة والروعة۔ وبصرف النظر عن القيمة العظيمة لفكره فإن شعر إقبال نال الشهرة نتيجة للألفاظ المنتقاة والخيال الحى المشرق المفعم بالحيوية۔

فقد نجح إقبال نجاحا ملحوظا فى إعطاء فلسفته أداء شعريا۔ وقوة وجدة خياله تعتبر مأثره لفصاحته وبلاغته الفريدة ووفرة الموسيقى نشاهدها فى كل بيت كتبه كما نشاهد الغنى والفتنه حتى فى مثنوياته فإن فصاحته وبلاغته تقدم روعة وجمالا متدفقا وقد قرر أحد أصدقاء إقبال أن إقبال كان حين ترد عليه حالة التأليف فإن تدفق الشعر يبدو متواصلا مستمرا۔ وهذه التلقائية كانت نتيجة لسجيته الشعرية، وتوجد البلاغة الرائعة فى كل ما كتب بل أن وهج وحرارة الإلهام لم يتضاءل أبدا۔([11])

ويقول د۔ يوسف حسين: إن كلام إقبال يمثل أمام أعيننا جوهر البلاغة فى المعانى والألفاظ فقد قدم الصور المجردة بروعة فائقة فى قالب الحياة والحركة واختار شكل الإستعارة لأفكاره وصوره المحسوسة فكثيراً من الشعراء كبوا الكثير من الأشعار فيما يتعلق بزوال الحسن إلا أن إقبال قد كشف النقاب فى منظومته "حقيقت حسن" عن الجوهر الأبدى للكائنات بطريقة نادرة فريدة ومن ناحية المحاسن اللفظية والمعنوية تعد من أحسن منظوماته:

"سأل الجمال الله ذات يوم: لماذا لم تخلدنى فى هذه الدنيا؟

فأجاب الله: هذه الدنيا كلمرسم، إنها اسطورة ليل العدم الطويل

ولأن هذه الدنيا خلقت من ألوان التغير فالجميل هو ذلک الشئ الذى حقيقتة الزوال۔ كان القمر فى مكان قريب فسمع هذا المحادثة، وأشاع هذا بين الفلک وسمعته نجمة السحر۔ وبعد أن سمع نجم السحر هذا الكلام، قاله للندى فعرف كاتم أسرار الأرض كلام الفلک فترقرقت الدموع فى الأزهار من رسالة الندى ودما قلب البرعم الصغير من الغم۔ وذهب الربيع من البستان باكيا والشباب الذى جاء منشرحا خرج متألما([12]) كم هو رائع المصرع الأخير:

"والشباب الذى جاء منشرحاً خرج متألما"

فالشاعر يشير فى هذا النظم إلى أن الحياة خاضعة للتغير والتبدل وكذلک الحسن والشباب أيضا لا يستغنى عن التغير، فالزمان فالذات عبارة عن التغير الدائم والتغير الملئ بأسرار العمل قابل للحدوث فى الزمان لكنه يبقى فى الداخل إلى الأبد لأنه يكون ما فوق الزمان، و بسبب التغير تنال الذات سموها۔

ولإقبال أيضا منزلة كبيرة فى التصور الأدبى فهو يقدم الأشياء التى لا حياة فيها فى شكل محسوس حتى تظنها وقد دبت فيها الروح ومثال هذا نراء فى "بزم أنجم" فهو يتحدث عن غروب الشمس وأحاديث النجوم بقدر بليغ من التشبيات الرائعة والذوق الأدبى الرفيع۔(13)

وفى شعر إقبال نماذج عمدة للصور الشعرية يضع فيها الحياة الساكنة وهى تتوق إلى الإضطراب والنشاط وما ذكرته سابقا من شعره فى وصفه للخضرة والربيع يعبر عن خيال رائع لم يطرقه أحد من قبل كما أنه فى عرضه للمنظر يعطى صورة الفطرة من سرّ الألفاظ وفى منظومته "كشمير" نظم شعرا جسد به الحقيقة أمام الأعين فاستعمل بدقة الوزن والبحر المناسب للمضمون۔ يقول إقبال:

إلق بالقدم فى كشمير وأنظر الجبل والتل والوادى والمدفن۔

أنظر الحشائش الخضراء هنا وهناک وانظر الحدائق المملوء ة بشقائق النعمان واسنشق بنسيم الربيع فى موجة إثر أخرى ولترى الطيور فى جماعات

أنظر إلى الحمام وإلى الزرزور أزواجا أزواجا على أشجار الموز

نبتت شقائق النعمان من الأرض ، والموج يلعب على وجه النهر

أنظر إلى التراب وقد ملئ بالشرر وانظر إلى الماء يتكسر من موجه

أنظرإلى الفتاةالبرهميةالصغيرةشقائق النعمان فى وجنتيهاوالصدرفضى إفتح العين على جمال وجهها ثم انظر إلى نفسک۔

وفى أثناء تجواله فى أفغانستان كتب أشعارا فى مدح قندهار، غاية فى المتانة والإحكام۔ يصف الربيع۔

الألوان، الروائح، الهواء والمياه

المياه تبرق بلمع السيوف

شقائق النعمان فى خلوة الجبال

النيران تداخلت مع الثلوج المترامية

(رنگ ها بو ها ہوا آب ها

آب ها تابيده چون سيماب ها

لاله ها در خلوت كهسارها

نار ها يخ بسته اندر نارها)

فصوت الهاء لم يستعمله الشاعر ليضبط الوزن فقط لكن صوت الهاء يظهر الهيبة والروعة ولنرى الفرق بين وصفه الكشمير ووصفه لقندهار لنقدر كمال شعره فهذا يعد ترجماناً لمدى صحة سيطرة الفطرة۔ وهذا الوجدان الشعرى إنما هو فى الواقع روح البلاغة۔(14)

ولا أريد أن أطيل بل يكفى أن يقول د۔ يوسف حسين أن إقبال ملک التشبيه ولو أردنا مثالاً لذلک فلنره فى منظومته "جگنو"۔۔۔ ولكذلک فى "بزم أنجم"۔ وقد استخدم إقبال فى الإستعارة والكناية ألفاظاً خاصة للقادة السياسيين مثل: خاک باز، مور ومگس، إبليس کے فوزند۔ وارث جنكيز پرويز ثم لفظ خودى ودلالته وقد ذكر المرحوم ظهير الدين علوى العميد السابق لجامعة (أُردو على گڑھ) أمثلة لذلک فى كتاب خيابان إقبال اكتفى هنا فقط بالإشارة إليه۔

الهوامش

[1]۔برون در گشتم زدرون خانہ گفتم سخنے نگفتہ راچہ قلندرانہ گفتم

[2]۔السک الہندی۔

[3]۔احمد میاں اَختر اقبال ایرانیوں کی نظر میں۔ مقالۃ الاستاذ طباطبائی۔

[4]۔طاہر فاروقی، خیابان اِقبال ص۲۹۶

[5]۔ د. عبد الوهاب عزام، محمد اِقبال سيرته و فلسفته و شعره، ط3، أكاديمية اِقبال لاهور 1985، ص /12، و مجلة الثقافة الباكستانية، العدد:15، تشرين الأول-الثاني1988، ص/18.

[6]۔الندوي، روائع اِقبال، ط4، مجلس نشريات اِسلام ناظم آباد كراتشي1984، ص/6.

[7]۔طاہر فاروق۔ خیابان اِقبال ص:۲۶۱۔

[8]۔S.A. Wahid: Iqbal. P. 127

[9]۔صف باندھے دونوں جانب بوٹے کھڑے ہوئے ہوں۔ ندی کا صاف پانی تصویر لے رہا ہو
ہو دلفیر ب ایسا کہسار کا نظارہ۔ پانی بھی موج بن کر اٹھ اٹھ کے دیکھتا ہو
پانی کو چھو رہی ہو جھک جھک کے گل کی ٹہنی جیسے حسین کوئی آئینہ دیکھتا ہو
پھولوں کو آئے جس دم شبنم وضو کرانے رونا مرا وضو ہو نالہ مری دعا ہو

[10]۔پتیاں پھولوں کی گرئی ہیں خزاں میں اس طرح۔ دست طفل خفتہ سے رنگین کھلونے جس طرح

[11]۔S.A Wahid: Iqbal P. 133

[12]۔۔من دیوان، بال جبریل۔"حقیقت حسن"

[13]یوسف حسین، روح اِقبال ص۱۰۲

[14]۔د۔یوسف حسین۔ روح اقبال ص۱۰۳-۱۰۲